انحــراف ابن هشام المصريِّ (761هـ) عن أبي حيَّان الأندلسيِّ (745هـ)، وأثرُه في تحرير المسائل العلميَّة.

د. محمَّد أحمد الوليد

أستاذ مشارك بقسم اللغة العربيَّة وآدابها جامعة بنغازي

المستخلص:

يدرس البحث تعصُّب جمال الدين عبد الله بن يوسف ابن هشام الأنصاري المصري (761هـ) على مُحَمَّد بن يُوسُف بن عَليّ بن يُوسُف بن حَيَّان الأندلسي (745هـ)، ويناقش أسباب عدم أخذ ابن هشام العلم عن أبي حيَّان، رغم شهرة أبي حيَّان في علم العربيَّة ووجودهما في بلدٍ واحدٍ، ويناقش اتهام أبي حيَّان ابن هشام بالإساءة إليه، وحُكْم القاضي على ابن هشام بالسِّجن، وأثر الخلاف بينهما على تحرير المسائل العلميَّة.

Abstract:

This study is about the intolerance of Jamal al-Din Abdullah bin Yusuf ibn Hisham al-Ansari al-Masri (761 H) on Muhammad ibn Yusuf ibn Ali bin Yusuf bin Hayan al-Andalusi (745 H), discussing the reasons why Ibn Hisham did not take knowledge from Abu Hayan, despite the fame of Abu Hayan in the Arabic fields and their presence in one country. The study also discuss Abu Hayan accusing Ibn Hisham of insulting him, the judge's ruling on Ibn Hisham to imprisonment, and the effect of the disagreement between them on the liberation of scientific issues.

مقدّمة:

الحمد لله عدَّ العدِّ، ومنتهى الحدِّ، وأصلِّي وأسلِّم على نبيِّه الأكرم، ورسوله الأعظم، سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه، **أمَّا بعد:**

فهذا بحث في انحراف ابن هشام عن أبي حيَّان، وبيان أثره في تحرير المسائل العلميَّة، وكان الظنُّ في بدء فكرته أنَّه يقصُر عن مقالةٍ وافيةٍ، فلمَّا فتَّشت أصلَه، وتبيَّنتُ أثرَه، وجدته طويلَ الذَّيلِ، عظيمَ النَّيلِ، ينبسِطُ به الذِّهنُ، وينشَطُ به الإدراكُ، وتتشقَّقُ منه مسائلُ، فكان هذا البحث.

أهداف الموضوع وغايته:

يهدف البحث إلى إبراز المسائل الآتية

1. حصر الرِّوايات التَّاريخيَّة الَّتي تثبت الخلاف بين ابن هشام وأبي حيَّان.
2. بيان رأي الباحثين المعاصرين في أسباب هذا الانحراف.

3. تحرير أسباب هذا الانحراف.
4. بيان أثرٌ هذا الانحراف في تحرير المسائل العلميَّة.

الأسئلة الَّتي يُجيب عليها هذا البحث:

يبحث في جواب ثلاثة أسئلة:

الأوَّل: لم تكن الملازمة من ابن هشام لأبي حيَّان؟

الثَّاني: لماذا يخالف ابنُ هشام أبا حيَّان كثيرًا؟

الثَّالث: هل أثَّر انحراف ابن هشام في تحقيق المسائل العلميَّة؟

خطَّة البحث ومصادره ومنهجه:

كُسِر البحثُ على مقدَّمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة.

التَّمهيد: "مكانة أبي حيَّان العلميَّة والكتب التي كان يدرِّسها".

المبحث الأوَّل: انحراف ابن هشام عن أبي حيَّان في الرِّوايات التَّاريخيَّة وتحليلها.

المبحث الثَّاني: أثر انحراف ابن هشام عن أبي حيَّان في تحرير المسائل العلميَّة.

ولم أذكر ترجمة الإمامين لشهرتهما، ولأن فيها تكرارًا لما في الدِّراسات السَّابقة، واكتفيت فقط ببيان منزلة أبي حيان العلميَّة في التمهيد؛ لأنَّها تخدم قضية البحث، وهي تعجب الباحث من عدم أخذ ابن هشام عن أبي حيان.

أمَّا مصادره فهي كتب التَّاريخ والتَّراجم، وبحوث حديثة متصلة بالشَّخصيتين موطن الدِّراسة، وقد قدَّمت الكتب التَّاريخيَّة المعاصرة لهما على غيرها، فإن كان في المتأخِّر جديدٌ مفيدٌ أثبته، وإلا اكتفيت بالمعاصِرة لهما.

اعتمد البحث على المنهج التَّاريخيِّ الذي يحلِّل الأحداث ويفسِّرها على أُسسٍ منطقيَّة، متتبِّعًا صحَّة الرِّواية واستنطاق دلالتها.

وانتهى إلى خاتمة دُوِّنت فيها النَّتائج والتَّوصيات، واللهَ أسألُ أن يجعل ما سُطِّر خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفعَ به القَرَأَة والباحثين.

تمهيد

مكانة أبي حيَّان الأندلسيِّ العلميَّة والكتب الَّتي كان يعلِّمها

تتفق المصادر التَّاريخية على أنَّ محمَّد بن يوسف الشَّهير بأبي حيَّان الأندلسيِّ تبوَّأ منزلةً رفيعةً في علوم العربيَّة والتَّفسير والقراءات لاسيَّما النَّحو، وصار مرجع النَّاس فيه في زمنه، لا يكاد يزاحمه في بلوغ الاجتهاد فيه أحدٌ قال أبو البقاء البلوي (767هـ):" وايم الله إنَّ المسرف في وصفه لمقتصدٌ"(البلوي، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، ص38).

وعبَّرت هذه المصادر التَّاريخيَّة عن هذه المكانة بأساليب متعدِّدة، فهي تضفي إليه ألقابًا فخيمةً، ورتبًا علميَّةً عاليةً لاسيما في علوم العربيَّة، فقيل فيه لا على وجه الحصر والإحاطة إنَّه: " العلَّامة الأوحد"، "شيخ النَّحويين"، "أمير النَّحويين في النَّحو"، " إمام النَّحويّين على الإطلاق " وشيخ الأدباء غير مدافع"، "شيخ البلاد المصريَّة والشَّاميَّة ورئيسها في علم العربيَّة"،" نحويُّ عصره ولغويُّه ومفسِّره ومحدِّثه ومقرئه ومؤرِّخه وأديبُه"." الإمام الكبير في العربيَّة " ،"إمام وقته في النَّحو والقراءات والآداب"، " " عَلَم القرَّاء أستاذ النُّحاة والأدباء"، "حجَّة العرب، مالك أزمَّة الأدب "(انظر على سبيل المثال لا الحصر: الذهبي، معرفة القرَّاء الكبار، ص387، ابن شاكر، فوات الوفيات، 71/4 ـ72، الصفدي، أعيان العصر، 325/5).

قال الصَّفدي (764هـ): " وأمَّا النَّحو والتَّصريف، فهو إمام النَّاس كلِّهم فيهما، لم يذكر معه في أقطار الأرض غيره في حياته"(الصفدي، أعيان العصر، 331/5).

الرِّحلة إليه:

أَمَّهُ كثيرٌ من طلَّاب العربيَّة من أفريقيا والشَّام والعراق وبلاد الأندلس(البلوي، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، 38) وغيرها للأخذ من علمه، والنَّهل من مرويَّاته، والتَّشرُّف بإجازاته، ومال إليه العلماء في رحلاتهم إلى الحج، قال الفيروز آبادي في بيان الرِّحلة إليه:" قصده الطلاب من الأقطار"(الفيروزآبادي، البلغة، ص251). وقال أيضًا:" قرأ عليه من الجماعة الغفير، فبلغوا في الفضل ذروة الأثير"(الفيروزآبادي، البلغة، ص252). وأقرأ النَّاس قديمًا وحديثًا حتَّى ألحق الصِّغار بالكبار وصارت تلامذته أئمَّةً وأشياخًا في حياته"، وقال ابن قاضي شهبة (851هـ):" وَقَرَأَ النَّاس عَلَيْهِ طبقَة بعد طبقَة حَتَّى ألْحق الأصاغر بالأكابر"(ابن قاضي شهبة، طبقات الشَّافعيَّة، 69/3).

ويقول السيوطيُّ (911هـ): " وأخذ عنه أكابر عصره وتقدَّموا في حياته"(السيوطي، حسن المحاضرة، 534/1)، ويقول الذَّهبيُّ:" سارت بذكره وتصانيفه ونظمه ونثره الركبان في أقطار البلدان"(الذهبي، العبر، 4/ 244).

ومن أجل السَّماع عنه ألَّف كتابه الصَّغير "بغية الظمآن"، (طبع قريبًا في المغرب)، وكان بمثابة إجازة جاهزة منه للمستجيز من العلماء.

تدريسه والكتب الَّتي كان يدرِّسها:

قال الصَّفدي:" خدم هذا العلم مدَّة تقارب الثَّمانين، وسلك من غرائبه وغوامضه طُرقاً متشعِّبة الأفانين."(الصفدي، أعيان العصر، 5/ 327)، ومحل درسه إمَّا في بيته أو في المساجد والمدارس لاسيَّما درسه التفسيري بـ"القبة المنصورية وهي وقفٌ من الملك المنصور قلاون لا يدرِّس بها إلَّا كبار العلماء المعتبرين"(المقريزي، المواعظ والاعتبار، 4/ 226) و درسه في علوم العربيَّة بـ "الجامع الْأَقْمَر المبني سنة (515)هـ" (الصفدي، الوافي بالوفيات، 5/ 176) ، والتَّدريس في هذه المساجد والمدارس له طابع الرسميَّة، وكان له نائب على درسه من كبار تلاميذه (البلوي، تاج المفرق، ص40)، وهذه بعض الكتب الَّتي كان يدرِّسها للناس، وهي إمَّا من تأليفه، أو من تأليف غيره وقد ذكرت جوارها موطن من أشار إلى تدريسها:

1.. "**ارتشاف الضرب**". الوافي:176/5.

2. إقراء الروايات القرآنية. "الوافي" :233./3

3." الألفيَّة في علم العربيَّة نظم أبى زكرياء يحيى بن معط" "تاج المفرق" :382.

4."البحر المحيط". الوافي:176/5.

5."التَّقريب" من مصنَّفاته "الوافي": 235./4

6." تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد". "الوافي" :237/3

7."ديوان زهير بن أبي سلمى". وسيأتي أن ابن هشام أخذه عنه

8."شعره وشعر غيره وكثيرًا من المرويات الأدبية" الوافي:237./3

9."الفصيح لثعلب، والأشعار الستّة والدريديّة". "المقفى الكبير":450./1

10." الكافية الشَّافية في النَّحو قراءة بحث وتفهم، وتنبيه على ما أغفله الناظم" لحظ الألحاظ :.138

11. "الكتاب لسيبويه". "الوافي 237./3

12." مقامات الحريري". " الوافي ":176/5.

وبدأ هذا التَّعليم بعد وفاة شيخه ابن النحَّاس سنة (698هـ) قال ابن قاضي شهبة:"وتصدى لإقراء الْعَرَبيَّة بعد موت ابْن النّحاس سنة ثَمَان وَتِسْعين وَصَارَ شيخ النَّحْوِيين من ذَلِك الْوَقْت إِلَى حِين وَفَاته" (ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية" :69/3)، وهذا يبين أن جلوسه لتدريس علوم العربيَّة وشهرته فيها كانت قبل ولادة ابن هشام بعشر سنوات؛ إذ إنَّ ابن هشام ولد سنة (708هـ)، فلماذا كان هذا الترك لأبي حيَّان والاكتفاء بغيره؟ هذا ما سيناقشه البحث في المبحث القادم.

المبحث الأوَّل:

انحراف ابن هشام عن أبي حيَّان في الروايات التَّاريخيَّة وتحليلها.

إنَّ المقام العلميَّ لهذين الإمامين ظاهرٌ معروفٌ، فكلاهما مجتهدٌ في النَّحو قد تعمَّق وتحقَّق، يُفتى باجتهاده، ويُنهَلُ من مصنَّفاته، ويُنتصرُ بأقواله، وقد سبقَ أبو حيَّان ابنَ هشام في الزَّمن والتَّأليف والتَّدريس والشُّهرة حتَّى حُفظت بعض كتبه، ونُظمت وشُرحت في حياته وبعد مماته (الصفدي، أعيان العصر، 2/ 437) وقد مرَّ بك في التَّمهيد ما يبين منزلته في العلم.

واعتنى ابنُ هشام بكتب أبي حيَّان عنايةً ظاهرةً شرحًا واقتباسًا، واقتفى أثره في العناية بكتب ابن مالك، فشرح الألفيَّة كما شرحها أبو حيَّان، وشرَحَ التَّسهيل كما شرَحَهُ أبو حيَّان، واشتهر في النَّاس أنَّ أبا حيَّان أوَّلُ من جرَّأ الناسَ على كتب ابن مالك، وفي النَّفْس منها شيءٌ ليس الآن أوان بيانه.

يذكر ابن حجر (852هـ) أنَّ ابن هشام سمع من أبي حيَّان ديوان زهير بن أبي سلمى، لكنَّه قال: " ولم يلازمه، ولا قرأ عليه"(العسقلاني، الدرر الكامنة، 3/ 93)، وإنَّه كان كثير المخالفة لأبي حيَّان شديد الانحراف عنه. (العسقلاني، الدرر الكامنة، 3/ 93).

وهذا التَّقييد "ولم يلازمه، ولا قرأ عليه" ينبِّه القارئ على ألا تجرَّه بداهة التَّصور ــ بوجود المعاصرة مع اجتماع المكان، وبروز أبي حيَّان في فنِّ النَّحو ــ إلى ظنِّ الملازمة، وهو ما يُتوقَّع أن يكون لولا هذا التَّنبيه المفيد.

وأورد ابنُ هشام رحمه الله في أنَّه اجتمع بأبي حيَّان، وسأله أبو حيَّان مسألةً في الإعراب، قال: "وسألني أبو حيَّان وقد عرض اجتماعنا"(ابن هشام، المغني، ص684)، فأبان أنَّ هذا الاجتماع عارضٌ، وليس لقاءَ تتلمذٍ، ودفع به أمر التَّدليس الَّذي يقع فيه بعض الفضلاء.

وقد وجدتُ كلامًا منسوبًا لابن هشام ينتقص فيه علم أبي حيَّان نقله المؤرِّخ أحمد بابا التُّنْبُكتي (1036هـ) قال:" قال الشَّيخ ابن غازي، وقد كاد يجمع الثَّقلان على قوَّة عارضة أثير الدِّين أبي حيَّان وتبرُّزه

في العلوم، وخصوصًا علم اللسان، فقد حاز فيه قصب السِّباق ورهان الميدان، ولا يلتفتُ لقول صاحب المغني:" لم يكن يُحسن اللسان"(التنبكتي، نيل الابتهاج، ص43).

وهذا الكلام مردودٌ بما استقر في فكر علماء الأمَّة ووجدانها وهو أنَّ أبا حيَّان تجاوز إحسان اللسان ليكون مجتهدًا فيه، قال تقيُّ الدِّين االسُّبكي (756هـ):" لم نلق في صناعة اللسان كأبي حيَّان"(السّبكي، طبقات الشافعية الكبرى، 10/ 224).

ولم أجد هذا الطعن الغريب من ابن هشام في أبي حيان في مصنَّفات ابن هشام الَّتي تحت يدي، وما وجدتُه هو أنَّ ابن هشام حكم على أبي حيَّان بأنَّه لا يعرف علم البيان(ابن هشام، المغني، ص521)، وينقض كلام ابن هشام أن لأبي حيَّان كتابًا اسمه "خلاصة التبيان في علمي البديع والبيان رجز" لم يكمله (تراجم طبقات النحاة، ص196).

كان أبو حيَّان ممَّن تُشد إليه الرِّحال، وهو مفخرةُ أهل مصر، فقد قدم مصر سنة (679هـ)، وولد ابن هشام في (708هـ)، وهو شيخ النَّحو منذ سنة (698هـ) (23) "وله إقبالٌ على الطَّلبة الأذكياء، وعنده تعظيمٌ لهم"(الصّفدي، نكت الهميان، ص267)، فلا عذر بشُقَّة السَّفر، ونأي المكان، واحتقار الطلَّاب.

يرى الشوكاني (1250هـ) أنَّ " كثيرًا ما ينافس الرَّجل من كان قبله في رتبته الَّتي صار إليها إظهارًا لفضل نفسه بالاقتدار..."(الشّوكاني، البدر الطّالع، 1/ 401) وما قدَّمه الشَّوكانيُّ رحمه الله هو جواب عن كثرة المخالفة لا عن علّة اجتنابه في فترة التلقي، فيكون التَّعليل ناقصًا.

ولفظ (اجتنابه) هنا ليس حشوًا، بل قصدتُ ذكره؛ لأنِّي رأيتُ ابن حجر استعمله في ردِّ رواية سماع قصيدة ينشدها ابنُ هشام عن أبي حيَّان، قال:" ولا يُعرف أنَّ ابن هشام أخذ عن أبي حيَّان شيئًا بل كان يجتنبه"(العسقلاني، إنباء الغمر، 3/ 387)، والقصيدة المنوَّه بها عشرون بيتًا تحتاج تفتيشًا وتحقيقًا، ولم أقف عليها عند من كتب عن العلاقة بين الإمامين.

وقد وقف البحث على اجتهاد لبعض الباحثين المعاصرين عن أسباب هذا الخلاف، منها ما هو صواب في ناحية من النواحي، ومنها ما هو بعيد عن الصواب، هذا ملخصه:

1.نقلت د. خديجة الحديثي عن د. عبد اللطيف حمزة تقريره بأنَّ منهجي الرَّجلين مختلفان، فكتب ابن هشام امتازت بالدقَّة والوضوح عن كتب أبي حيَّان، وكان ابن هشام في أدائه واضحًا معتمدًا على الاستنباط والقياس، وكان أبو حيَّان معقَّدًا، معتمدًا على النَّقل والرِّواية (الحديثي، أبو حيّان النّحوي، ص526، 527، ومن اعتراضات ابن هشام على أبي حيّان، ص190، ومآخذ ابن هشام على أبي حيّان، ص194).

وقد رد **بعض الباحثين** على هذا الاستنتاج، ووصفاه بالتَّحامل على أبي حيَّان، محتجين بأنَّه لم ينقل أحد أنَّ أبا حيَّان كان معقَّدًا أو غامضًا(من اعتراضات ابن هشام على أبي حيّان، ص188، ومآخذ ابن هشام على أبي حيّان، ص196)، ويرى الباحثُ صواب هذا الرد.

2. يرى د. **فودة نيل** أنَّ حدة مزاج أبي حيَّان وتعصُّبه لنحاة الأندلس سبب هذا الانحراف من ابن هشام، واستدلَّ على ذلك بما روي في الخلاف بين ابن تيميَّة وأبي حيان(فودة، ابن هشام: آثاره ومذهبه، ص461).

ويرى الباحث أنَّ الحدَّة سببٌ من الأسباب، أمَّا كونها تعصُّبًا لأهل الأندلس فيُعكِّره ردُّ أبي حيَّان على ابن مالك ردًّا قاسيًا في مقدِّمة شرحه على الألفيَّة، وقد ذكر أنَّه (بلَديُّه) أي من نفس البلاد الَّتي ينتمي إليها، ويعكِّره أيضًا أنَّ أبا حيَّان كان يفضِّل ابن عقيل وهو مصري قال:" مَا تَحت أَدِيم السَّمَاء أنحى من ابْن عقيل"(شهبة، طبقات الشّافعية، 3/ 97).

3. يرى د. **عبد العال سالم مكرم** أنَّ هذا الانحراف كان سببه شعور ابن هشام بأنه لا يقلُّ عن علماء عصره في النَّحو، وأنَّه أراد كسب الشُّهرة بخلافه مع أبي حيَّان، وأن هذا الانحراف يقوم على فكرٍ وعلمٍ، لا عن هوى وحَسَد كما فعل أبو حيَّان مع ابن مالك (مكرم، المدرسة النّحويّة في مصر والشّام، ص324).

وعجبٌ أن يحكم د. عبد العال مكرم على أبي حيَّان بحسده لابن مالك، وأنَّ نقده له كان قائمًا على الهوى، فهذا الحكم ممَّا لا يُحسد عليه ؛ إذ لا تعاضده رواية، ولا تثبته حجَّة، بل مبنيٌّ على شكٍّ وتخمين، وخلطٍ بين منافسة الرجال للرجال باتهامهم في ديانتهم وعدم مصداقيتهم في علمهم، وكم من مواطن كثيرة في مؤلفات أبي حيَّان النحويَّة قرَّر فيها أقوال ابن مالك واستدلَّ بما في مصنَّفاته، وارتضى تصحيحاته، ولولا ضيق المقام لأوردت كثيرًا منها فليس مقبولًا في العلم أن تُجمع نصوص النَّقد وحدها إلى بعضها بعضًا ثمَّ يُنتزع منها حكمٌ عامٌّ يفتقر إلى الدقَّة والصَّواب.

4.يرى د. **حسن موسى الشَّاعر** أنَّ هذا الانحراف له أسبابٌ عدَّةٌ هي حدَّة مزاج أبي حيَّان وقابله اعتداد ابن هشام بشخصيته، وأنَّ أبا حيان كان يفضِّل بعض تلاميذه كابن عقيل فلم يرض ابن هشام بهذا التفضيل لغيره من الطلَّاب (من اعتراضات ابن هشام على أبي حيّان، ص190).

والقول بحدة المزاج مقبولٌ عند الباحث، لكن سبب تفضيل أبي حيَّان بعض الطلَّاب على ابن هشام أراه ضعيفًا؛ إذ لم يثبت أنَّ ابن هشام شارك الطلاب في الأخذ عن أبي حيَّان في النَّحو حتَّى يشعر بتفضيل غيره عليه، بل سمع منه ديوان زهير بن أبي سلمى لا غير.

5.يرى محمَّد نبي أحمدي، وسيد علي ميرلوحي أنَّ سبب الانحراف هو الخلاف الدينيٌّ، والمعاصرة (مكانة النّحويّين في مغني اللبيب، ص150).

ولا أعرف مستند الباحثين في الارتكاز على الخلاف الديني ليثبتا هذا الانحراف فكلا العالمين مسلمان سنيَّان، إلَّا إذا أرادا أنَّ ابن هشام كان صوفيًا وأنَّ أبا حيَّان كان يقع في مريدي التَّصوف، ولم أقف على نص يؤيد تصوُّف ابن هشام بل عثرتُ على نصٍ نادر ينقد فيه ابن عربي الصُّوفي صاحب فصوص الحكم ووسمه بالضلال المبين (السّخاوي، القول المنبي، 2/ 316).

6. يرى د. الهادي نهر، وتبعه أ. علي الحديثي أن الخلاف بينهما طبيعي، ومظهر من مظاهر التفكير الحر، تحدث بين العلماء كافة (علي الحديثي، مآخذ ابن هشام، ص195).

ولا يتفق الباحث مع هذا الرأي، فهو يخالف ما اشتهر في كتب التراجم عن العلاقة بين الإمامين، فقد بيَّنَت أن الصِّلة بينهما كانت مبنيةً على الكدر كما سيأتي بيانه، ويتجاهل هذا الرأي أيضًا عدم أخذ ابن هشام عن أبي حيَّان في مرحلة الطَّلب، مع شهرته وقربه منه، كما أنه ينزع صفة البشريَّة عن العلاقات بين النَّاس ولو كانت بين العلماء والفضلاء، فالعالم إن نزعته من بشريته فقد ظلمته، وكتب السير تذكر ما جرى بين بعض العلماء من التحاسد والتباغض، واتهام بعضهم بعضًا.

ولعل مرجع هذه التأويلات بعدم وجود النزاع بينهما هو الخوف على مكانة العلماء، وأنه لا يليق بهم، ويفتح باب الطعن عليهم من بعض الناشئة.

ويرى الباحث وجوب مناقشة هذه الروايات، لا أن نتجاهلها ونغض الطرف عنها، بل يُنظر فيها ثم يتم توجيهها وجهتها الصحيحة فهي مرويات يرويها تلاميذ هؤلاء الأعلام، وهم علماء وفضلاء، فلسنا أكثر حرصًا منهم، وهذا واجبنا مع الرواية التاريخية الصادقة ولو كانت مؤلمة، وهذه ميزة من ميزات تاريخ هذه الأمة التي عرفت بجرح الرجال وتعديلهم، فوثقتهم أو ضعفتهم، أو قوتهم في أمور، وضعفتهم في أمور.

رأي الباحث:

أظنُّ أن الانحراف والانتقاد له أسباب متعدِّدةٌ منها ما يوافق بعض ما سبق إليه هؤلاء الباحثون، ومنها ما أغفلوه وهو الأقوى في نظر الباحث:

أوَّلاً: أنَّ أبا حيَّان ـ على علمه وتقدُّمه وفضله واعتنائه بالطلَّاب الأذكياء ـ كان شديدًا لا يَقبل مخالفًا له " لا يُثبت لأحد شيئًا في العربيَّة، وينظر إلى النُّحاة بعين النَّقص؛ لسعة ما هو فيه من التبحُّر في علم اللسان"(الذّهبي، معرفة القرّاء، ص376).

ويروى أنَّه كان سيِّءَ الظنِّ بالنَّاس كافَّة، ويقع في النَّاس عامَّة، قال الأُدْفوي (748هـ) " وبسبب ذلك وقع في نفْس جمعٍ كثيرٍ منه ألمٌ كثير"(العسقلاني، الدّرر الكامنة، 6/ 64).

وقد نما إليه أنَّ تلميذه السَّمين الحلبيَّ (756هـ) أنكر عليه مسائل في تفسيره" الدُّر المصون"، فأنكر السَّمينُ " وحلفَ أنّه لم يفعل ذلك، مع أنّه محشوّ بالحطِّ عليه وتزييف كلامه والانتصار للزمخشري عليه." (المقريزي، المقفّى الكبير، 1/ 462).

يفسِّر بعض علماء النَّفس هذا السُّلوك من أبي حيَّان رحمه الله بأنَّه راجعٌ لعبقريته، فالعبقريَّة قد يكون لها مضارٌّ على صاحبها: ومن هذه المضار: الانحياز المعرفي الذَّاتي، والمبالغة في تقدير ما يملكه من علم، والاستعلاء على الآخرين (روبسون، الجوانب السّلبية لدى الأذكياء).

وكان ابن هشام رقيق القلب متواضعًا دمث الخلق (العسقلاني، الدّرر، 3/ 94، والنّجدي، السحب الوابلة، 2/ 664) وكان ابن المرحِّل متواضعًا(المؤيد، المختصر في أخبار البشر، 2/ 56) فكان الأقرب أن تميل النَّفس إلى شبيهها طبعًا، فلزم ابنَ المرحِّل وهجر أبا حيَّان، وقد كتب بعض العلماء أن هناك عبقريات لا تحبِّذ القيود والمراقبة، ولو كانت تحت مسمَّى الرِّعاية العِلميَّة (سايمنتن، العبقرية والإبداع، ص99).

وقد يُرد على ذلك بأن كثيرًا من طلبة العلم أخذوا عن أبي حيَّان، وكان له إقبالٌ على الطَّلبة الأذكياء وتعظيمٌ لهم، وما منعت هذه الحدَّةُ العلميَّة وشراسة خلقه تلقِّي الأئمَّة عنه.

أقول: هذا صحيح جدًّا، ولكنَّه لا يمنع أيضًا من أنَّ النُّفوس لا تلتقي جميعُها على أمرٍ واحدٍ، فهناك نفوس حسَّاسة لا تقبل الحدَّة ـ ولو كان حاملها علم الدُّنيا ـ، ويؤيِّد ذلك أنَّ الحافظ العراقيَّ ترك الأخذ عن أبي حيَّان لمَّا بلغه شدَّة مزاجه قال ابن فهد (871هـ):" وكان متشوِّقًا للأخذ عن الأستاذ أبي حيَّان والاجتماع به فبلغه عنه سوء خلقٍ وحطّ على الفقراء فغيَّر عزمه عن ذلك غَيرة للفقراء لصحبته إياهم وخدمته لهم فحصل له بذلك العناية التامَّة"(الأصفوني، لحظ الألحاظ، ص144).

وهذا السَّبب تخميني لا أزعم به القطع، وإنَّما هو لمحة ناظر وقدحة خاطر.

الثَّاني: أنَّ ابن هشام ـ رحمه الله ـ كان لا يرى أنَّ أبا حيَّان عالم وقته، وفريد دهره كما استقرَّ عند جمهرة أهل عصره، بل كان يرى أنَّ النحويَّ شهاب الدِّين بن المرحِّل الحرَّاني(744هـ) أفضلُ منه علمًا.

قال الصَّفدي (764هـ) في ابن المرحِّل:" كان في النَّحو علَّامة، له فيه أمارات بيِّنة وعلامة، لو عاصره الأستاذ ابن عصفور لكان غلامَه متثبتاً فيما يقوله، سالمةً من الشك نقوله"(الصفدي، أعيان العصر، 3/ 164).

وقال ابن قاضي شُهْبة (851هـ): "وقد انتهت إليه وإلى الشَّيخ أبي حيَّان مشيخة النَّحو بالدِّيار المصريَّة"(ابن قاضي شهبة، طبقات الشّافعية، 3/ 30).

وقال زين الدِّين الملطي (920هـ):" وكان عالِمًا، فاضلًا، بارعًا، علَّامة عصره، ماهرًا في النَّحو، ماهرًا بالفنون" (الملطي، نيل الأمل، 1/ 84).

عُرف ابنُ المرحِّل بأنَّه أستاذ ابن هشام وصار علامةً عليه، قال السُّبكي (771هـ):" شهاب الدِّين ابن المرحِّل النَّحوي أستاذ صاحبنا الشَّيخ جمال الدِّين عبد الله بن هشام في النَّحو"(السّبكي، طبقات الشّافعية الكبرى، 10/ 429).

يقول ابن حجر في ترجمة ابن المرحِّل، وقد أخذ عنه الشَّيخ جمال الدِّين ابن هشام "وهو الذي نوَّه به وعرَّف بقدره **وكان يطريه ويفضِّله على أبي حيَّان وغيره** ويقول: كان الاسم في زمانه لأبي حيَّان والانتفاع بابن المرحِّل"(العسقلاني، الدرر الكامنة، 3/ 209).

وكان ابن هشام يمدحه إذا جاء ذكره فيقول مثلًا:" وهذا عين ما ذكره شيخُنا ابن المرحل فلله دره"، ولم يفعل ذلك إلَّا في موطن واحد مع أبي حيَّان فيما وقفتُ عليه في (شرح للمحة البدرية فوصفه بالشَّيخ وتعقَّبه برحمه الله (ابن هشام، شرح اللمحة البدرية، 2/ 99)، وقد تكون من دعوات النُّسَّاخ.

وقد وقف الباحثُ على نسخة من كتاب "التَّسهيل"، كُتبت بيدِ ابن المرحِّل، هي غاية في الدِّقَّة والإتقان وجمال الخطِّ، وتشهد بعلم الرَّجل، وجاءت عليها حواشٍ كثيرةٌ أهداني مصورة منها الأستاذ حمزة أبو توهة الفلسطيني جزاه الله خيرًا، وهي تحتاج مقابلةً بالتَّسهيل المطبوع.

الثالث: أنَّ مؤلَّفات أبي حيَّان غلبت في حلقات التعليم في عصر ابن هشام، ففي انتقاد أراء أبي حيَّان إظهار لشخصيته العلميَّة، وبرهان على علو كعبه في العلم، وأيضًا هي ضرورة التعامل مع الواقع، فطلبة العلم زمن ابن هشام عكفوا على مختصرات أبي حيان فكان لزامًا على ابن هشام أن يتعرض لها، فهي مناهج مقررة في المساجد والتكايا، قال تاج الدِّين السُّبكي (771هـ) :" وكان الشَّيخ أبو حيَّان إمامًا منتفعًا به اتَّفق أهل العصر على تقديمه وإمامته، **ونشأت أولادهم على حفظ مختصراته، وآباؤهم على النظر في مبسوطاته،** وضُربت الأمثال باسمه مع صدق اللهجة وكثرة الإتقان والتحري"(السبكي، الطبقات ، 9/ 279).

الرَّابع. شكوى أبي حيَّان ضدَّ ابن هشام عند القاضي موفَّق الدين الحجاوي الحنبلي:

وهذا عند الباحث من أقوى أسباب اجتنابه، وإن كان يفهم من حيثياتها أنَّ موقف ابن هشام من أبي حيَّان كان قبل حدوثها.

فقد عثرتُ على نصٍّ نادرٍ يبين سوء العلاقة بينهما وأنَّها امتدَّت حتَّى وصلت كرسيَّ القضاء، وقد غفل عنه كثيرون، ويبيِّن أن مهمَّات الأخبار قد تكون في غير مظانِّها، يقول المقريزيُّ (845هـ) في ترجمة قاضي القضاة موفَّق الدِّين الحجاوي الحنبلي:" ورفع إليه الشَّيخ أثير الدِّين أبو حيَّان على الشَّيخ جمال الدِّين بن عبد الله بن هشام أنَّه كتب على بعض مصنّفاته: «**كذب أبو حيَّان**» في كلام من جنس ذلك. فأقامه، وكشف رأسَه، وبعثه إلى السِّجن"(المقريزي، المقفّى الكبير، 4/ 75).

وفي "رفع الإصر":"وقرأت بخطِّ صاحبنا جمال الدِّين البِشْبِيشي، أنَّه (أي القاضي موفَّق الدِّين)عزَّر جمالَ الدِّين ابن هشام، لكونه كذَّب أبا حيَّان في بعض تصانيفه"(ص201).

ولم أقف على موطن التَّكذيب في مصنَّفات ابن هشام الَّتي بين يدي، وربمَّا يكون أزاله بعد حكم القضاء، وقد عُرف أبو حيَّان بأنَّه" ثبت فيما ينقله، محرِّرٌ لما يقوله" (الصّفدي، نكت الهميان، ص267).

كان قاضي القضاة موفق الدِّين الحجَّاوي الحنبلي قويًا صارمًا، قال المقريزي:" يُؤاخذُ حتَّى بالكلمة الواحدة مع قوّة النَّفس، وإمضاء الحكم، وعدم مراعاة الجاه"(المقريزي، المقفّى الكبير، 4/ 75).

وممَّا يشابه بحثنا أنَّ قاضي القضاة الحجَّاوي المذكور هو من عاقب أيضًا المحدِّث مُغْلَطاي (762هـ) لمَّا صنَّف كتاب «الواضح المبين فيمن استشهد من المحبِّين»، ورأى فيه إساءة لأمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها " فاستدعاه إلى مجلس حكمه ومعه الكتاب المذكور ... فضُرب وكُشف رأسُه وسُجن، ولم يخش فيه جاهًا"(المقريزي، المقفّى الكبير، 4/ 75) فاتَّحدت عقوبة مغلطاي وابن هشام وإن اختلفت الوقائع والأسباب.

وهذه الأحكام القضائيَّة في قضايا العلم لا ينبغي أن يُنظر إليها على أنَّها من الجور والباطل، أو أنَّها تحجيرٌ على فكر العلماء وإبداعهم، بل هي رقابة قضائيَّةٌ نافذةٌ على النَّاس جميعًا تصون الحقوق، وتبيِّن الصِّدق، وتغلُّ اللسان عن التَّجريح، وتكبح جماح النَّقد المنفلت، فيكمُل بوجودها دور العلم في بناء المجتمع، وتُصان بها المعرفة، وأعراض الكتَّاب، وتُلغي سلوك بعض الناس: "قل ما شئت بما شئت فيمن شئت".

زمن المحاكمة وأعمار شخوصها

وبعد أن ثبتت لدينا روايةٌ تاريخيَّةٌ في بيان محاكمة جرت بين الشَّيخين، وكان الحكم فيها قاسيًا، أخذتُ أفتِّشُ في سنة وقوعها، فاهتديت إلى أنَّها قد وقعت في إحدى سنوات (738 ـ745)؛ إذ إنَّ الحجاوي تولى القضاء سنة (738) (ابن مفلح، المقصد الأرشد، 2/ 59) واستمرَّ فيه ثلاثة عقود (ابن تغري بردي، النّجوم الزّاهرة، 11/ 99)، ووفاة أبي حيَّان كانت سنة (745هـ).

فيكون عُمر أبي حيَّان زمن المحاكمة من (84 ـ 91) سنة؛ إذ إنَّه ولد سنة (654هـ) (الصّفدي، الوافي بالوفيات، 5/ 185)، وعمر ابن هشام (30 ـ 37) سنة إذ إنَّه ولد سنة (708) (السّيوطي، بغية الوعاة، 2/ 86)، ويكون عمر قاضي القضاة موفَّق الدين الحجاوي (48ـ55) سنة؛ إذ إنَّه ولد نحو سنة (690هـ) تقريبًا (المقريزي، المقفّى الكبير، 4/ 75).

ذكرتُ تلك الأعمارَ لأبيِّن أنَّ أبا حيَّان كان حين انعقاد مجلس الحكم كبيرَ السِّن، ضريرًا، رفيعَ القدر، شيخَ علماء مصر، ومجتهدَ العصر في النَّحو، "نشأت أولادُهم على حفظ مختصراته وآباؤهم على النَّظر في مبسوطاته"(السّبكي، طبقات الشّافعية الكبرى، 9/ 279)، وقد أثْبَتَ في هذه المنزلة العلميَّة وهذا العُمر الممتدَّ خلاف ما رماه به الشابُّ ابنُ هشام فكان حكم القاضي لائقًا مع سنِّ أبي حيَّان ومقامه العلميِّ والمجتمعيِّ، فقضيَّتُه أشبه بقضايا الرَّأي العام في أيامنا.

وتبيِّن هذه الحادثة التَّاريخيَّة أنَّ العالم إن جرَّدته من بشريَّته فقد ظلمته، فأقدار الله غالبةٌ، والنَّفس البشريَّة أمَّارةٌ، وأنَّ أثر الخصام قد يؤثِّر في مناقشة مسائل العلم فيضرها، وقالوا: "المعاصرة أصل المنافرة... والمعاصرة حجاب"، (مخلوف، شجرة النّور الزّكية، 2/ 226)، وقد يحسد بعض العلماء علماء معاصرين لهم (المناوي، اليواقيت ، 2/ 369)، فالمحفوظ من حفظه الله تعالى.

المبحث الثَّاني

أثر انحراف ابن هشام عن أبي حيَّان في تحرير المسائل النَّحويّة

كانت معارضة ابن هشام أبا حيَّان ظاهرةً في مصنَّفاته، وهذه المعارضة تحتاجُ طالب علمٍ نشيط يتتبعها ويزنها بميزان العلم، وهي من أصعب الأمور.

وأثر الانحراف ينظر إليه الباحث هنا من ناحيتين:

الأولى: من ناحية تعقُّب ابنِ هشام أبا حيَّان في مصنَّفاته.

الثانية: بحث أثر ذلك عند العلماء النَّحويين الَّذين جاءوا بعدهما.

المطلب الأوَّل: تعقُّب ابن هشام أبا حيَّان في مصنَّفاته

قد ثبت من خلال الوقائع التاريخية أن هناك كدرًا في العلاقة بين ابن هشام وأبي حيان، واشتد أمرها حتى وصلت إلى مجلس القضاء، وهذا يستوجب من الناحية العلمية بيان أثر هذا الكدر في تحرير ابن هشام لمسائل أبي حيان في مصنفاته، فيطلب البحث الإجابة على سؤالين هما:

هل كان ابن هشام منصفًا لأبي حيَّان في نقده واستدراكاته؟

ما أسلوب ابن هشام في هذا النَّقد؟

من خلال النَّظر نجد أنَّ هذا التَّتبع اتخذ اتجاهين هما:

الاتِّجاه الأوَّل: تتبع كتاب كامل بالشَّرح والاستدراك: مثل تتبع كتابه "اللمحة البدريَّة"، فنقد أسلوبه ومنهجه، وبعض آرائه وحدوده.

الاتِّجاه الثَّاني: نقد آراء له في تفسيره "البحر المحيط"، أو في "شرح التَّسهيل" أو في "ارتشاف الضَّرَب" ونحو ذلك.

وقد أقيمت دراسات وأبحاث في الاتِّجاهين اطَّلع البحث على بعضها، وهي:

1."**مآخذ ابن هشام الأنصاري على أبي حيَّان** في **اللمحة البدريَّة**". لعلي بن صالح الحديثي، وهي رسالة ماجستير أُعدَّت بجامعة القصيم بالسُّعوديَّة في نحو (248) ورقة، وانتهت إلى إثبات شدَّة انحراف ابن هشام عن أبي حيَّان في كثير من المسائل، وأنَّ جلَّ هذا النَّقد كان في أساليب أبي حيَّان، ولكنَّه كان شديدًا في عباراته، فوصف أبا حيَّان بما لا يليق، وبلغ حدَّ الإساءة في ألفاظه، وأنَّ ابن هشام كان باحثًا عن الحقيقة، وأنَّ أغلب نقده كان مقبولًا مصحوبًا بالدَّليل (علي الحديثي، مآخذ ابن هشام على أبي حيان، ص208).

2." **من اعتراضات ابن هشام الأنصاري على أبي حيان الأندلسي)** بحث أعدَّه د. حسن موسى الشَّاعر، ونشر بمجلَّة جامعة دمشق المجلد(22) لسنة 2006م.

وقد اجتهد د. الشَّاعر في أن يتتبع بعض اعتراضات ابن هشام لأبي حيَّان من خلال اقتفائه لأشهر هذه الاعتراضات سواء في مصنَّفاتٍ خاصَّة تتعقَّب كتب أبي حيَّان وهي " شرح اللمحة البدريَّة"، و" فوح الشَّذا في مسألة كذا" أو في مصنَّفات ابن هشام الأخرى، وهي: "شذور الذَّهب" و"مغني اللبيب"، و"تخليص الشَّواهد وتلخيص الفوائد"، و"رسالة في توجيه النَّصب".

ويرى د. حسن الشَّاعر أنَّ كتابي "شرح اللمحة البدريَّة" و" فوح الشذا" ألَّفهما ابن هشام بقصد الانتقاص من أبي حيَّان يقول:" وقد قام بشرح كتابين صغيرين لأبي حيَّان بهدف الانتقاص منه والردِّ عليه" (من اعتراضات ابن هشام، ص168)، ويرى أنَّ كتابه مغني اللبيب أقلُّ كتبه حدَّةً في نقد أبي حيَّان(من اعتراضات ابن هشام، ص177).

ويرى البحث أنَّ دراسة الشاعر لم تخلُ من فوائدَ حسنةٍ، ولكنَّه يسجِّل عليها أمرين:

الأوَّل: أنَّها ناقصةٌ لم تستوعب ما في الكتب الَّتي اختارها في التتبع؛ إذ إنَّ طبيعة الموضوع المختار كبيرٌ لا تعينه أحكام النَّشر في المجلات الَّتي تشترط قدرًا محدَّدًا من الصَّفحات والكلمات، فهو بحث يؤهِّل لنيل رسالة دكتوراه.

ويبدو أنَّ الكاتب د. الشَّاعر مدرك لذلك فأدخل حرف (من) على عنوانه، ومثل هذه العنوانات تفتقر إلى الدقَّة في الاستنتاج والحكم.

الثَّاني: أنَّها لم تستوعب كتب ابن هشام الأخرى كشروحه المتعدِّدة للألفيَّة وقد صدر اثنان منها بتحقيق حمزة أبو توهة، وأغفلت تعقُّبه لأبي حيَّان في كتابه " التَّحصيل والتَّفصيل لكتاب التَّذييل والتَّكميل لأبي حيَّان "، وأظنُّ أنَّ أي دراسة كانت أو ستكون لا تشتمل على هذا الشَّرح الأخير سيصيبها النَّقص الشَّديد.

3. " **نقد لحكم ابن هشام على أبي حيَّان في ضوء آرائه البلاغيَّة**"، أعدَّه د. محمَّد نبي أحمدي، و د. على سليمي، نشر في مجلَّة دراسات في اللغة العربيَّة وآدابها، العدد 2، سنة 2010م عن جامعة: سمنان بإيران.

وملخَّصُه البحثُ في قول ابن هشام في المغني إنَّ أبا حيان لم يكن يعرف علم البيان.

وانتهى البحثُ إلى أنَّ ابن هشامٍ يقف موقفًا سلبيًا من أبي حيَّان " ينظر إليه بنظَّارة سوداء، يخطئه دائمًا، ويتَّهمه بأنَّه لا يعرف علم البيان، وما أيَّده حتَّى لمرَّة واحدة" (نقد لحكم ابن هشام، ص14)، وأنَّه كان يعرف علوم البلاغة حقَّ المعرفة، وأجاد في تطبيقها على آيات القرآن، وأنَّ حكم ابن هشام لا يخلو من القسوة والجور عليه (نقد لحكم ابن هشام، ص15).

ولي على الباحثين الكريمين استدراكان:

الأوَّل: إنَّ هذا البحث يبحث في الردِّ على ابن هشام بإثبات أنَّ أبا حيَّان يعرف علم البلاغة، واعتمد على نصوص من تفسير أبي حيَّان، وهذا حسنٌ، ولكنَّه ترك دليلًا كبيرًا متَّصلًا بموضوعه سبقت الإشارة إليه في بدء هذا البحث وهو كون أبا حيَّان له مصنَّفٌ في البلاغة لم يكمله وسمه بـ "خلاصة التِّبيان في علمي البديع والبيان رجز".

الثَّاني: إنَّ البحث ذكر أنَّ ابن هشام تعلَّم على يد أبي حيَّان وقرأ عليه، وهذا غير صحيح، وقد سبق بيان ذلك.

4. " **مكانة النَّحويين في كتاب مغني اللبيب لابن هشام الأنصاري أبو حيَّان الغرناطي** نموذجًا" أعدَّه محمد نبي أحمدي، وسيد علي ميرلوحي. نشرته الجمعيَّة الإيرانيَّة للغة العربيَّة وآدابها العدد 11، (1388هـ).

وانتهى كاتباه إلى أنَّ ابن هشام بوَّأ سيبويه والزَّمخشريَّ وابنَ مالك مكانة عالية، ولكنَّه لا يذكر اسم أبي حيَّان إلَّا ويريد تخطئة آرائه أو تقبيح شخصيَّته.

هذه بعض الدِّراسات الَّتي عُنيت بتعقُّب ابن هشام لأبي حيَّان، وأرى أنَّ موضوع الاعتراض على أبي حيَّان من ابن هشام عملٌ كبيرٌ يحتاج وقتًا وجهدًا من طالب علم نشيط لتحصيل درجة الدكتوراه مثلًا، ويكون بتتبعِ جميع ما في كتب ابن هشام عن آراء أبي حيَّان لا باختيار بعضها، ثمَّ يكون هذا التَّتبعُ وفق تاريخ تأليفها ما أمكن، فيبدأ ببدايات تأليفه كعنايته بالألفيَّة حتَّى يصل إلى آخر ما كتب؛ ليصل إلى حكمٍ دقيقٍ في بيان أثر الانحراف فإن للسنِّ وللنضج العلمي أثرهما في ذلك.

ويجب بيان أمر هنا يغفل عنه بعض الباحثين وهو أنَّ مسائل الانتقاد والتعقُّب لا تُقبل ابتداءً على أنَّها من الحقِّ البيِّن، فقد يعتورها نقص في فهم كلام المردود عليه، أو يحمل كلامه على غير ما أراد، أو أن للمعارَض دليلًا غاب عن المعترِض.

وأظنُّ أن تتبع ابن هشام لأبي حيان كانت له ثلاث صورٍ:

الأوَّلى: تتبعٌ بحقٍّ يدعمه الدَّليل.

والثَّانية: تتبعٌ يحتمله النَّظر.

والثَّالثة: تتبعٌ مردود فيه شططٌ ومبالغة.

المطلب الثَّاني: أثر انحراف ابن هشام على العلماء النَّحويين الَّذين جاءوا بعدهما.

كان لهذا الانحراف أثرُه في تحرير بعض القضايا العلميَّة فقد ركن أصحابها إلى تفسير بعض القضايا بالاتكاء على قضية انحراف ابن هشام عن أبي حيَّان، وسوف يسوق البحث قضيتين تبين قصده.

القضيَّة الأولى: تحقيق نسبة مخطوط "إعراب لا إله إلا الله لابن هشام المصري".

وجد مخطوطٌ بهذا العنوان بمكتبة عارف حكمت (رقم (88) مجاميع) بخط العلَّامة الحنبلي محمَّد بن أحمد بن علي البهوتي الشهير بالخلوتي، (1088هـ) كُتب على غلافه، وفي مقدِّمته أنَّه لابن هشام المصري.

ولم **أجد** في كتب التَّراجم والسِّير الَّتي بين يدي كتابًا يُنسب لابن هشام يحمل هذا العنوان.

ويقول د. نبيل فودة بصحة نسبة هذا المخطوط لابن هشام مستندًا إلى الأدلة الآتية:

1. إن استهلاله بـ "أمَّا بعد حمد الله" هو من تعابير ابن هشام.

2–إن منهجه في التَّأليف شبيه بمنهج ابن هشام.

3–إنَّ بعض ما فيه من آراء موجودةٌ في كتاب "مغني اللبيب".

4–إنَّ تضمُّنَه بعض أسماء العلماء السَّابقين، كابن عمرون، قد تضمَّنته رسائل أُخر لابن هشام (فودة، ابن هشام: آثاره ومذهبه، ص295).

ويرى محقق رسالة " إعراب لا إله إلا الله" د. موسى الشَّاعر أنَّ هذه الرِّسالة ستبقى منسوبة لابن هشام حتَّى يظهر خلاف ذلك، وأنَّه ليس مطمئنًا إلى نسبتها لابن هشام؛ لأنّها تحتوي على علاقة طيبةٍ بين مؤلِّفها وبين أبي حيَّان، وهذا كافٍ في عدم نسبتها لأبي حيَّان (مقدّمة تحقيق إعراب: لا إله إلا الله).

والحقُّ أني لم أطمئن إلى صحَّة هذه النِّسبة متكئًا أيضًا على ما شكك د. الشَّاعر وهو اشتمالها على تعبير حسن من صاحب الرِّسالة اتِّجاه أبي حيَّان، وهو ليس معهودًا في سائر كتبه، وهذا ما أغفله د. نبيل فودة، وأخذتُ أفتش في كتب التَّراجم وفهارس المخطوطات، وغلب على حدسي أنَّها للمرادي أو لابن الصَّائغ، ـ وكلاهما تلميذٌ لأبي حيَّان ـ حتَّى وجدتُ نسخةً أخرى من المخطوط تنسبه لابن الصَّائغ فصدق ظنِّي بفضل الله، وقد حقَّقه د. رباح اليمني من غزَّة.

ويُؤخذ على المحقِّقَين أنَّ كليهما لم يكلِّف نفسه عناء البحث عن النُّسخة الأخرى، فنسخة د. الشَّاعر في المدينة بمكتبة عارف حكمت رقم (88) مجاميع، ونسخة رباح اليمني في معهد المخطوطات العربيَّة تحت رقم (455)، وهما ظاهرتان: فهرسة، وشهرةً، وكان ممَّا قاله د. رباح اليمني:" وقد اجتهدت في البحث عن نسخة أخرى فلم أعثر على ضالَّتي المنشودة" (مجلة الدراسات اللغوية مج د ع 3 2000م)، فأساء إلى نفسه بهذا التَّصريح.

ولو عاد د. الشَّاعر إلى نسخة الإسكندريَّة المصوَّرة بمعهد المخطوطات العربيَّة بالقاهرة لاطمأنَّ إلى صدق شكِّه في عدم صحة نسبتها إلى ابن هشامٍ، ولوجد أن ما احتج به د. نبيل فودة في قوله ". إن استهلالها بـ "أما بعد حمد الله" هو من تعابير ابن هشام" كان من فعل النَّاسخ، فالنُّسخة المصريَّة خالية منها.

أمَّا قوله: "إن منهجها في التأليف شبيه بمنهج ابن هشام" فظنٌّ غلبه فحكم به.

وأما قوله:" إنَّ بعض ما فيها من آراء موجودة في كتابه مغني اللبيب"، فهو محقٌّ في ذلك، ولكنَّه لا يعلم أنَّ ابن هشام في "المغني"، والمرادي في "الجنى"، وابن الصَّائغ في هذه الرِّسالة يأخذون عن كتاب واحد هو شرح التَّسهيل لأبي حيَّان ولهذا تشابهت، وقد أفاد ذلك نصٌّ نفيسٌ للسيوطي ذكر فيه علَّة تشابه المغني

والجنى الداني وهو أن مصدرهما واحد قال:" والمصنف مستنده فيما ذكره من التمثيل والتقسيم أبو حيان في شرح التسهيل كعادته فلو شئت لقلت إن المغني مختصر منه فإنه تابع له فيه بالحرف في تقرير الأقسام والأحكام والشواهد والأبحاث والأجوبة والتخريجات لاينفك عنه حتى إنه ينقل كلام أبي حيان الذي قاله من عند نفسه جازمًا به "(السّيوطي، حاشية السّيوطي على المغني، 194ظ).

أما قوله: إن تضمنها بعض أسماء العلماء السَّابقين، كابن عمرون، قد تضمَّنته رسائل أُخر لابن هشام) فمردود بأمرين:

الأوَّل: أنَّ النَّقل عن ابن عمرون ليس خاصًّا بابن هشام فقد نقل عنه أبو حيَّان وابن ناظر الجيش وغيرهما.

الثاني: أنَّ نقل ابن الصائغ عن ابن عمرون في هذه الرسالة متوقَّع جدًا؛ إذ إنَّ لابن عمرون شرحًا على "المفصَّل"، ولابن الصائغ شرحًا كذلك على "المفصَّل"، وكان ابن الصَّائغ يعتمد على شرح ابن عمرون، فنقله في هذه الرِّسالة عن ابن عمرون ليس محلَّ استغراب.

إن تشقيق هذه المسألة العلميَّة في تحقيق التراث كانت مبنيةً في جزء كبير منها على قضيَّة انحراف ابن هشام عن أبي حيَّان، فهذا المخطوط جاء في ثناياه:" وكنت عرضت هذا النَّظر على شيخنا أبي حيَّان"، وهذا الأسلوب لا يستقيم مطلقًا مع تعابير ابن هشام عند ذكره لأبي حيَّان، فهو في كلِّ كتبه يذكره باسمه مجردًا دون أي وصف فيه تعظيمٌ له.

<u>القضيَّة الثَّانية: تفسير الشُّمنِّي لمعني بيت متَّكئًا على انحراف ابن هشام عن أبي حيَّان</u>

لخَّص تقي الدِّين أحمد بن محمد الشُّمنِّي (872هـ) شرح مغني اللبيب للدماميني (827هـ)، وزاد عليه أشياء نفيسةً وسمَّى هذا العمل "المنصف من الكلام على مغني ابن هشام"، وهو مطبوعٌ.

وقد عني في هذا التَّلخيص بالدِّفاع عن ابن هشام من نقد ابن الصَّائغ الحنفيِّ (776هـ) والبدر الدَّماميني.

ومن الأدلَّة الَّتي تبيِّن أثر رواية انحراف ابن هشام عن أبي حيَّان في تفسير مسائل العلم تعليق الشُمُنِّي على ما أورده ابن هشام في قوله: " وسألني أَبُو حَيَّان ـ وَقد عرض اجتماعنا ـ علام عُطف (بحقلَّد) من قَول زُهَيْر:

– (نَقِيٌّ نقيٌّ لم يُكثِّر غَنيمَةً ... بِنَهْكَة ذِي قُربى وَلَا بحَقلَّدِ)

فَقلتُ: حَتَّى أعرف مَا الحقلَّد، فنظرناه **<u>فإذا هُوَ سيىء الْخلق</u>**، فَقلتُ: هُوَ مَعْطُوف على شَيْء متوهَّم، إِذِ الْمَعْنى لَيْسَ بمكثر غنيمَة فاستعظم ذَلِك"(ابن هشام، مغني اللبيب، ص685).

يقول الشمني بأنَّ المقصود بـ (فإذا هو سيىء الخلق) هو أبو حيَّان ـ رحمه الله ـ مستندًا في هذا التوجيه الغريب، والتَّأويل البعيد إلى الرواية التَّاريخيَّة التي تثبت انحراف ابن هشام عن أبي حيَّان يقول:" الَّذي أتوهَّم أنَّ المصنِّف قصد التَّنكيت على أبي حيَّان لما كان بينهما من المناقشة، فأورد كلامَه على وجهٍ يحتمل عود الضَّمير من قوله:"فإذا هو السَّيء الخلق" إلى الحقلَّد أو إلى **أبي حيَّان** إشارة إلى ما ينسب إلى كثير من المغاربة من سوء الخلق ..." (الشّمني، حاشية الشّمني على المغني، 2/ 200).

خاتمة البحث ونتائجه وتوصياته

1. **بعد** هذا التطواف في تاريخ القرن الثَّامن الذي جمع بين هذين الإمامين العظيمين نطمئن إلى وجود هذا الانحراف وما ترتَّب عليه من نقدٍ في مؤلفات ابن هشام لأبي حيان حتَّى اتَّهمه بالكذب في موطن لم يصل إليه البحث وكان هذا التكذيب سببًا في تلك الشكوى من أبي حيان ضد ابن هشام أمام القضاء، والحكم القاسي ضد ابن هشام، ولا يُغفل أيضًا حدة طبع أبي حيان وانحيازه المعرفي في علم النَّحو خاصَّة إلى نفسه.

2. **اختلف** الباحثون المعاصرون في تحديد أسباب هذا الخلاف فمنهم من يراه دينيًا، وآخر يظنُّه إبرازًا لمكانة الناقد، وآخر حكم بأنَّه لداء المعاصرة، وآخر بأنه لاختلاف منهج الرجلين، وآخر بأن الخلاف بينهما طبيعي، ومظهر من مظاهر التَّفكير الحر، وصوَّب البحث بعض هذه الآراء ونقد بعضها، وأضاف إليها.

3. **تكاد** تجمع الدراسات التي تحت يدي البحث على التزام ابن هشام بنقد أبي حيان، ولكنها اختلفت: فمنها ما رأت ابن هشام منصفًا في نقده، ورأته بعضها متحاملًا متعصبًا، وتكاد تجمع هذه الدراسات على أنَّ ابن هشام كان حادَّ العبارة مع أبي حيان لم يعظمه في موطن من المواطن، ولم يشد بفضله وتقدُّمه.

4. كل الدراسات التي عكفت على بيان نقد ابن هشام لأبي حيان لا تكفي لإصدار حكم صادق جازم؛ إذ إن منها ما اكتفى بدراسة قضيةٍ واحدة، ومنها اكتفى بكتاب واحدٍ، ومنها اكتفى ببعض الكتب، ولا توجد دراسة استقرأت كل تراثه، ومن كتبه المهمة التي لم تدرس هذا الأثر: حاشية ابن هشام على شرح أبي حيان على التسهيل فهي مظنة نقد كبير من ابن هشام لأبي حيَّان.

التَّوصيات

1. **يوصي** البحث بضرورة قيام دراسة وافية في هذه المسألة من خلال جمع كتب ابن هشام كلها لاسيما المطبوعة حديثًا كشروحه على الألفية، وكذا حاشيته على التَّسهيل والبحث عن بقية المخطوطات ثم ترتيبها ترتيبًا تاريخيًا من حيث تأليفها قدر الاستطاعة حتَّى نتلَّمس تطوّر حكم ابن هشام على أبي حيَّان فللسنِّ وللنضج العلميِّ أثرهما البالغ في إصدار الأحكام.

2.**يوصي** الباحث بالتَّفتيش عن مخطوط " **تَنْزِيه السّلف عَن تمويه الْخلف فِي الرَّد على مغنى اللبيب** " لمؤلفه ابن الصَّائغ الحنفي أحد تلاميذ أبي حيَّان، فقد يكون فيه ما يكون تبيانًا وتوضيحًا للعلاقة بين الإمامين.

3. **يوصي** البحث بدراسة كتاب عبد القادر البغدادي (1093هـ) " شرح أبيات المغني" فقد تعقَّب ابن هشام في نقده لأبي حيَّان، وبين أنَّ مأخذ ابن هشام في كثير من آرائه من أبي حيَّان، وهو يؤكِّد نص السيوطيِّ الَّذي أكَّد فيه حقيقة بناء مغني اللبيب على شرح التَّسهيل لأبي حيَّان.

وكلَّما تذكَّرتُ خلاف الإمامين تحضرني (لو)، ــ وليست كل (لو) تفتح عمل الشَّيطان ــ فأقول: لو لازم ابنُ هشام مجلس أبي حيَّان لجاءنا ما لا نتصوَّره شرحًا واستدراكًا وتعليلًا وتأصيلًا، ثم تطيبُ نفسي فأقول: هي كرامة الله لابن هشام أراد له أن يكون كأبي حيَّان " انفرد بالفوائد الغريبة، والمباحث الدَّقيقة، والاستدراكات العجيبة "، وإن لم يتلقَّ عنه علم النَّحو. ولا تغيبُ هنا حكمةُ ابن عطاء الله السَّكندري (709هـ) "**ربَّما أعطاك فمنعك، وربَّما منعك فأعطاك، ومتى فتح لك باب الفهم في المنع صار المنعُ عينَ العطاء**".

رحم اللهُ أمَّةَ الإسلام

المصادر والمراجع

- الأصفوني، محمَّد بن محمَّد. (1998م). **لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفَّاظ**.ط1. بيروت– دار الكتب العلميَّة.
- البلوي، خالد بن عيسى بن أحمد. **تاج المفرق في تحلية علماء المشرق**. المكتبة الشَّاملة.
- ابن تغري بردي، يوسف. **النُّجوم الزَّاهرة في ملوك مصر والقاهرة**. مصر– دار الكتب.
- التُّنبكتي، أحمد بابا بن أحمد بن الفقيه الحاج أحمد. (2000م). **نيل الابتهاج بتطريز الدِّيباج**. عناية وتقديم: عبد الحميد الهرَّامة. ط2. طرابلس– دار الكاتب.
- الحديثي، خديجة. (1966م) **أبو حيَّان النَّحوي**. ط1. بغداد– دار النَّهضة.
- الحسيني، شمس الدِّين محمَّد بن علي بن الحسن. (1998م). **ذيل تذكرة الحفَّاظ**. ط1. بيروت– دار الكتب العلميَّة.
- الذهبي، شمس الدِّين محمد بن أحمد بن عثمان. **العِبر في خبر من غبر**. حقَّقه: أبو هاجر زغلول. بيروت– دار الكتب العلميَّة.
- الذَّهبي، شمس الدِّين محمَّد بن أحمد بن عثمان. (1997م). **معرفة القرَّاء الكبار على الطَّبقات والأعصار**. **ط1. بيروت**– دار الكتب العلميَّة.
- سايمنتن، دين كيث. **العبقريَّة والإبداع والقيادة**. ترجمة: د. شاكر عبد الحميد. سلسلة عالم المعرفة. رقم (176). الكويت.
- السبكي، عبد الوهَّاب بن تقي الدِّين. (1413هـ). **طبقات الشَّافعيَّة الكبرى**. تحقيق: د. محمود محمَّد الطَّناحي ود. عبد الفتَّاح محمَّد الحلو. ط2. هجر للطباعة والنَّشر والتوزيع.
- السيوطي، عبد الرَّحمن بن أبي بكر. **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنُّحاة**. حقَّقه: محمَّد أبو الفضل إبراهيم. لبنان– المكتبة العصريَّة.
- السيوطي، عبد الرَّحمن بن أبي بكر. **حاشية السيوطي على مغني اللبيب المسماة: الفتح القريب**. (مخطوط) الأسكريال. رقم51.

- السيوطي، عبد الرَّحمن بن أبي بكر. (1967م). **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**. حقَّقه: محمَّد أبو الفضل إبراهيم. ط1. مصر – دار إحياء الكتب العربيَّة.
- الشّمني. (2009م). **حاشية الشُّمنّي على مغني اللبيب**. ط1. القاهرة– دار البصائر.
- الشوكاني، محمَّد بن علي بن محمد. **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع. بيروت**– دار المعرفة.
- الصَّفدي، خليل بن أيبك. (1998م). **أعيان العصر وأعوان النَّصر**. تحقيق: د. علي أبو زيد وآخرين. ط1. بيروت– دار الفكر المعاصر.
- الصَّفدي، خليل بن أيبك. (2007م). **نكت الهميان في نكت العميان**. علق عليه ووضع حواشيه: مصطفى عبد القادر عطا. ط1. لبنان– دار الكتب العلميَّة.
- الصَّفدي، خليل بن أيبك. (2000م). **الوافي بالوفيات**. حقَّقه: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى. بيروت– دار إحياء التُّراث.
- صلاح الدِّين، محمَّد بن شاكر. (1973م). **فوات الوفيات**. تحقيق: إحسان عبَّاس. ط1. بيروت– دار صادر.
- العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر. (1969م). **إنباء الغمر بأبناء العمر**. تحقيق: د حسن حبشي. مصر – المجلس الأعلى للشئون الإسلاميَّة.
- العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر. (1972م). **الدُّرر الكامنة في أعيان المائة الثَّامنة**. الهند– مجلس دائرة المعارف العُثمانيَّة الثَّانية.
- ابن العماد، عبد الحي بن أحمد. (1986م). **شذرات الذَّهب في أخبار من ذهب**. حقَّقه: محمود الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط. ط1. بيروت– دار ابن كثير.
- فودة، **علي**. (1985م). **ابن هشام آثاره ومذهبه النَّحوي**. الرياض– جامعة الملك سعود.
- الفيروزآبادى، مجد الدِّين محمَّد بن يعقوب. (2000م). **البُلغة في تراجم أئمَّة النَّحو واللغة. ط1**. دار سعد الدِّين للطباعة والنَّشر والتَّوزيع.
- ابن قاضي شهبة. أبو بكر بن أحمد بن محمَّد. (1407هـ). **طبقات الشَّافعيَّة**. حقَّقه: د. الحافظ عبد العليم خان. ط1. بيروت– عالم الكتب.
- المؤيد، أبو الفداء إسماعيل بن علي. **المختصر في أخبار البشر. ط1**. المطبعة الحسينيَّة.
- مخلوف، محمَّد بن محمَّد. (1360هـ). **شجرة النُّور الزكيَّة في طبقات المالكيَّة**. لبنان– دار الكتب العلميَّة.
- ابن مفلح، إبراهيم بن محمَّد. (1990م). **المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد**. حقَّقه: عبد الرَّحمن بن سليمان العثيمين. ط1.الرّياض– مكتبة الرُّشد.
- المقريزي، أحمد بن علي. (2006م). **المقفَّى الكبير**. المحقق: محمَّد اليعلاوي، ط2. بيروت– دار الغرب الإسلامي.
- المقريزي، أحمد بن علي. (1418هـ). **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**. ط1. بيروت– دار الكتب العلميَّة.
- مكرَّم، عبد العال سالم. (1980م). **المدرسة النَّحويَّة في مصر والشَّام. ط1**. دار الشُّروق.
- الملطيّ، زين الدِّين عبد الباسط بن أبي الصَّفاء. (2002م). **نيل الأمل في ذيل الدُّول**. حقَّقه: عمر عبد السَّلام تدمري. ط1. بيروت– المكتبة العصريَّة.
- المناوي، زين الدِّين محمَّد عبد الرَّؤوف بن تاج العارفين بن علي العابدين. (1999م). **اليواقيت والدُّرر في شرح نخبة ابن حجر**. تحقيق: المرتضي الزين أحمد. ط1. الرياض– مكتبة الرُّشد.
- ابن ناصر الدِّين، محمَّد بن عبد الله. (1393هـ). **الردُّ الوافر**. حقَّقه: زهير الشَّاويش. ط1. بيروت– المكتب الإسلامي.
- النَّجدي، محمَّد بن عبد الله. (1996م). **السُّحب الوابلة على ضرائح الحنابلة**. تحقيق: بكر بن عبد الله.
- ابن هشام، عبد الله بن يوسف. **إعراب لا إله إلا الله**. تحقيق موسى الشّاعر. مكتبة لسان العرب.

- ابن هشام، عبد الله بن يوسف. (1985م). **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**. حقَّقه: د. مازن المبارك ومحمَّد علي حمد الله. ط6. دمشق– دار الفكر.
- ابن الوردي، عمر بن مظفر زين الدين. (1996م). **تاريخ ابن الوردي. ط1**. لبنان– دار الكتب العلميَّة.

البحوث المنشورة في المجلَّات:

- **مكانة النَّحويين في مغني اللبيب**. (1430هـ). مجلَّة الجمعيَّة الإيرانيَّة للغة العربيَّة وآدابها. المجلَّد الخامس. العدد11. مجلَّة فصليَّة محكَّمة.
- **من اعتراضات ابن هشام الأنصاريِّ على أبي حيَّان الأندلسي**. مجلَّة مجمع اللغة العربيَّة دمشق مجلد 22. العدد: 1ـ 2.
- **نقد لحكم ابن هشام على أبي حيَّان في ضوء آرائه البلاغيَّة**. (2010م). مجلَّة دراسات في اللغة العربيَّة العدد 2. إيران.

الرَّسائل العلميَّة:

- **القول المنبي عن ترجمة ابن عربي. لمحمَّد بن عبد الرَّحمن السَّخاوي. (1422هـ) تحقيق خالد مدرك (رسالة دكتوراة). السُّعوديَّة– جامعة أم القرى.**
- **مآخذ ابن هشام الأنصاريِّ على أبي حيَّان في اللمحة البدريَّة جمعًا ودراسةً**. (2017م). رسالة ماجستير. إعداد: علي بن صالح الحديثي. السُّعوديَّة– جامعة القصيم.